حيفا، في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٠، ودعا الى اقامة «حكومة وطنية مسؤولة أمام مجلس نيابي» في فلسطين، دون ان يشير الى الوحدة مع سوريا[٢١]، فكان، بذلك، نقطة الانطلاق الحقيقية للوطنية الفلسطينية.

الوطنية الفلسطينية ومهادنة بريطانيا

لم تتخذ الوطنية الفلسطينية، عند انطلاقتها، موقفاً مناهضاً للاحتلال البريطاني، وركّزت طاقاتها، طوال مرحلة العشرينات، على النضال ضد اليهود والحركة الصهيونية، وبقيت قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية تراهن على امكانية احداث تغيير في مواقف الحكومة البريطانية الداعمة لمشروع الوطن القومي اليهودي، وتسعى الى التوصل الى حلّ وسط معها، يحفظ مصالح بريطانيا في فلسطين في مقابل تخلّي هذه الاخيرة عن دعمها للمشروع الصهيوني.

ويلاحظ المتتبع للمواقف التي اتخذتها قيادة الحركة الوطنية تجاه بريطانيا، خلال تلك المرحلة، بأن هذه القيادة بقيت عاجزة عن فهم طبيعة الظاهرة الاستعمارية الحديثة، وادراك حقيقة الأسباب والمتطلبات الاستراتيجية التي دفعت بريطانيا الى فرض سيطرتها على فلسطين، حتى ان كلمة الاستعمار، كما أشار عادل حسن غنيم، لم تكن ترد في معظم بيانات اللجنة التنفيذية للمؤتمر العربي الفلسطيني طوال السنوات العشر الاولى من الانتداب، في الوقت الذي كانت فيه شعارات مقاومة الاستعمار مرفوعة، بشكل جلّي، في القاهرة ودمشق وبغداد. وقد أكد محمد عزة دروزه على هذه الخصوصية في توجهات قيادة الحركة الوطنية في فلسطين بقوله: «في كل البلاد المستعمرة، تقاس الوطنية بموقفها القومي من الاستعمار. أمّا في فلسطين، فصار يستساغ ان يكون لمن يعقد أواصر الصداقة مع الانكليز ويخدم أغراضهم ويروج مطالبهم ان يكون له شأن في الحركة القومية اذا ما كان مناوئاً لليهود والحركة اليهودية»[٢٢]. ومن جهة أخرى، يلاحظ المتتبع لمواقف هذه القيادة أنها لم تعمل، في تلك المرحلة، على تعميق الاستخلاصات التي كان توصل اليها بعض المفكرين الفلسطينيين والعرب، قبل الحرب العالمية الاولى، حول علاقة الحركة الصهيونية بالدول الغربية الكبرى، وظلت، بالتالي، عاجزة عن ادراك طبيعة الترابط العضوي بين الحركة الصهيونية والاستعمار البريطاني، مُرجعة التأييد البريطاني لمشروع الوطن القومي اليهودي الى إعتبارات ثانوية، مثل عدم المام بريطانيا بحقيقة النوايا والاهداف الصهيونية، أو وقوع حكوماتها، أحياناً، تحت تأثير النفوذ الصهيوني.

وكان يكمن وراء هذا الموقف المهادن لبريطانيا عوامل عديدة، سياسية، واقتصادية، وفكرية. فقد كانت القناعة السائدة لدى بعض مكونات الوطنية الفلسطينية، وبخاصة في بداية عهد الانتداب، بأن بريطانيا، التي وقفت الى جانب الثورة العربية وتحالفت مع زعيمها الشريف حسين، لن تسمح، على المدى البعيد، بقيام سيطرة صهيونية على فلسطين، وان رغبتها في الحفاظ على الامن والاستقرار في امبراطوريتها ستدفعها الى مراعاة مشاعر ملايين المسلمين، من سكان هذه الامبراطورية، الذين ينظرون نظرة خاصة الى فلسطين ومقدساتها الدينية. ومن جهة أخرى، كانت الطبيعة الطبقية لقيادة الحركة الوطنية العربية الفلسطينية تفرض على هذه القيادة، حرصاً منها على مصالحها الاقتصادية ومكانتها السياسية، تجنب الاصطدام المباشر بالسلطات البريطانية. ومن جهة ثالثة، كان هناك، في إطار الوطنية الفلسطينية، مَنْ يؤمن بقدرة بريطانيا وعزمها على لعب دور «تحديثي» في فلسطين، ينهي التخلّف الذي كان مهيمناً عليها في العهد العثماني، ويفتح أمام شعبها أبواب التقدّم والمدنية. وقد عكست جريدة «مرآة الشرق»، لصاحبها بولس شحادة، ذلك الايمان بالدور «التحديثي» لبريطانيا